أحمد عبدالمقصود
باحث تربوي

الإنصاف.. قيمة إسلامية وضرورة إنسانية

إننا نعيش في عالم موّار متسارع الأحداث، لا تكاد تمر ساعة من ساعاته بل دقيقة من دقائقه إلا وافانا بجديد يترك بصماته على الحياة والأحياء، ومن مقررات علم الاجتماع وثوابته أن كثرة الانفتاح وتزايده على هذا النحو، والأخذ بأسباب التحديث والتطور يحمل في أحشائه نذيرا بمزيد من الاختلاف بين أبناء الجماعة البشرية، فما يعرض للناس من نوازل ومشكلات يجعلهم أكثر عرضة للاختلاف ممن لا يمرون بها، نظرا لما يصاحب التحديث والتطور من اشتباك في الرؤى والأفكار.

ولسنا نقول شططا عندما نزعم أن هذا الاختلاف سنة كونية مطردة تحفظ للحياة حيويتها وخصوبتها، وتمسك عليها نضارتها وشبابها، وقد فهم فريق من أهل العلم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩) أن المراد بعلة الخلق هي الاختلاف والتنوع، الاختلاف بين غني وفقير، وعالم وجاهل، وضال ومهتد، والمراد هنا كما لا يخفى هو ذلك الاختلاف الذي تستقيم به الحياة وتنتظم مسيرتها في رشد واعتدال، وليس ذلك الخلاف المذموم الذي يأتي على العلاقات الإنسانية فيقطعها، ويصيب الحياة بالعقم والجمود.

معوقات في طريق الإنصاف

وفي ضوء ما قررناه يأتي حديثنا عن الإنصاف كضرورة إنسانية وقيمة إسلامية يتفهم من يتحلون به أسباب الاختلاف ويستثمرونه ويديرونه على نحو لا يصادم سنن الله أو يعارض إرادته الكونية القدرية، وإن مجتمعا إنسانيا يحرم هذا القيمة ويسلب تلك الفضيلة لهو أكثر عرضة من غيره لأن تسري فيه سموم الكراهية وجراثيم البغضاء، مما ينبئ عن انهيار وشيك وسقوط قريب، وكم أفلت حضارات وانهارت أمم افترستها الخصومات عندما ذبل فيها خلق الإنصاف، فأصبحت أثرا بعد عين.

وقبل أن نعرض لمعالم الإنصاف مع المخالف، لابد لنا من وقفة مع تلك المعوقات التي تحول دون انتعاش هذا الخلق النبيل بين الناس، وشيوع ضده من الإجحاف وقلة الإنصاف.

فممن أبرز المعوقات البيئة التي ينشأ فيها، وما يشيع فيها من أعراف وتقاليد تربي المرء على التعصب، وتنظر للإنصاف على أنه ضعف يشين صاحبه، ويجرئ عليه المخالف، وهذا بلا ريب امتداد لأخلاق الجاهلية التي كان شعارها الساري: انصر أخاك ظالما أو مظلوما.

ويأتي اتباع الهوى سببا رئيسيا من أسباب قلة الإنصاف، فالميل مع الهوى يعمي المرء عن رؤية الإيجابيات والمحاسن، ويصمه عن قبول الحق والاعتراف به، وقديما قالوا: حبك الشيء يعمي ويصم، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وصاحب الهوى يعميه ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه لهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، وربما يكون معه شبهة من دين»[1].

وثالث هذه المعوقات هو النظر إلى النفس بعين الكمال، فالمرء عندما ينصب نفسه حكما على آراء الناس وأقوالهم وسلوكياتهم قد يغيب عنه أنه مثل من يحكم عليهم، يجتمع فيه الخطأ والصواب، والغي والرشاد، والحق والباطل، ويطبع أعماله طابع القصور البشري الذي يطبع أعمال الناس جميعا، فيجب عليه ألا يعامل الناس إلا بمثل ما يحب أن يعاملوه به من الإعذار وتفهم الأخطاء، قال ابن حزم رحمه الله: «من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فإنه يلوح له وجه تعسفه»[2].

من قواعد الانصاف

الإنصاف ثمرة من ثمار دوحة العدل الباسقة، وفرع من فروعه الدانية، وهو يلتقي مع العدل في الأصول والجذور وإن اختلف عنه في

التفاصيل والفروع، ومن أبرز سمات إنصاف المخالف ومفرداته ما يلي:

(أ) التبين والتثبت قبل إصدار الأحكام

وذلك امتثالا لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ (الحجرات:٦). وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء:٩٤). والتبين والتثبت من خصائص أهل الإيمان، ومن القواعد المستقرة لدى أهل الأصول: «ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين». قال الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن وقاف حتى يتبين».

(ب) الحكم على الظاهر وعدم الخوض في النيات

فقد أقر النبي ﷺ -وهو المعصوم المؤيد- قاعدة عظيمة في قوله: (إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم) (البخاري ومسلم)، فكيف بغيره؟! وقد قالوا قديما: «من أبحر في نوايا الناس غرق»، والحكم على ما في النيات نوع من الادعاء المبطن بعلم الغيب.

(ج) إحسان الظن وحمل الكلام على أحسن المحامل

وإحسان الظن بالناس وترك السيئ من الظنون فيهم من علائم الفطرة السليمة والقلب النظيف، وقد روى أبوداود وحسنه عن أبي هريرة رضي الله عنهما: «حسن الظن من حسن العبادة»، وفي رواية: «من حسن عبادة المرء حسن ظنه».

وأقوال السلف والخلف في مدح حسن الظن والحث عليه كثيرة، وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس».

(د) الإقرار بما للآخرين من مزايا

وهذا الاعتراف منشؤه الرؤية الموضوعية المحيطة بالحياة التي لا تعتبر النقد ذكر المثالب والعيوب فحسب، بل الكشف أيضا عن الإيجابيات ومكامن الخير، ومن جميل ما ورد في ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن المستورد بن شداد أن النبي ﷺ قال: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو بن العاص: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك». فإن ثناء عمرو على الروم وتعداد محاسنهم لم يكن إلا لما استقر في نفسه من خلق الإنصاف.

(هـ) البعد عن التعميم في إطلاق الأحكام

فالتعميم يحمل في معظمه الكثير من الظلم والبعد عن السوية الفكرية، وقد عرفت البيئة العربية هذا التعميم الذي شاع في هجائهم ومدائحهم، فجاء الإسلام ليشجب هذا النوع من إصدار الأحكام ويعيد الأمر إلى نصابه المعتدل الرشيد، فقال ﷺ: «إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها، ورجل انتفى من أبيه» (صحيح الأدب المفرد للألباني).

وقد جاء القرآن يضرب المثل ويؤصل قاعدة الإنصاف مع المخالف في صورة باهية مشرقة تظهر بجلاء كيف يعامل الله فريقا من عباده الذين شاعت بينهم الجرأة على مقام الوهيته، في وقاحة سجلتها أسفارهم ونطقت بها أدعيتهم وصلواتهم، وسجل القرآن عنهم قولهم عن الله عز وجل -حاشاه-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة ٦٤). ومع هذا التطاول الشائن فإن الله أنصف فريقا منهم وأثنى على أمانته وحفظه حقوق الناس مهما كانت كبيرة تغري بالخيانة والإتلاف، فيقول تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ (آل عمران: ٧٥).

وفي موطن آخر من القرآن يثني الله على فريق من عباد أهل الكتاب الذين يعكفون على الكتاب المنزل عليهم، فيعمرون به لياليهم به قائمين ساجدين فيقول تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣).

إنه سبحانه ينصفهم وهو القادر على ألا يفعل، فهم مربوبون تحت قهره وسلطانه، وهو غني عنهم وهم مفتقرون إليه، أليس في هذا إشارة إلى عباده أنهم أولى بالإنصاف فيما بينهم وهم يتعايشون على أرض واحدة، ويحتاج بعضهم إلى بعض؟!

الهوامش

(١) منهاج السنة: ٥/ ١٧٦.

(٢) الأخلاق والسير: ص ٨٠.